﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا ١٠٤﴾ [الكهف: 104]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لما قَبْلَها:

ضـلالُ السَّـعْـي في الدّنيا علامةُ الخُسْرانِ وسوء المصير

لمّا ذكرَ اللّهُ تعالى الأخسرينَ أعمالًا في قولِهِ: ﴿قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا﴾ بيَّنَ المرادَ بهم، ووصفَهم بضدِّ ما يدَّعونَهُ لأنفُسِهم مِنْ نجاحِ السَّعْيِ وإحسانِ الصُّنْعِ، فقالَ: ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا﴾، وفي هذا الوصفِ بيانٌ لرُكْنِ خُسْرانِهم(1).

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ضَلَّ﴾: المعنى المحوريُّ للضّادِ واللّام: ضَياعُ الشَّيءِ وذهابُهُ في غيرِ حقِّهِ(2)، والضَّلالُ بمعنى الضَّياعِ يُقابِلُهُ الوُجْدانُ، وقد يُطلَقُ بمعنى العُدولِ عنِ الطَّريقِ المستقيمِ، ويقابلُهُ الهدايةُ، ويقالُ لكلِّ عُدولٍ عنِ المنهجِ عمدًا كانَ أو سهوًا، يسيرًا كانَ أو كثيرًا(3)، ويقالُ: ضلَّ الكافرُ، إذا غابَ عنِ الحُجَّةِ(4)، ومعنى ﴿ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ﴾: ضاعَ وبطلَ(5).

2) ﴿سَعۡيُهُمۡ﴾: سَعَى الرَّجلُ يَسْعَى سَعْيًا، إذا عَمِلَ وكَسَبَ، وكلُّ مَنْ ولِيَ شيئًا على قومٍ فهو ساعٍ عليهم، وأكثرُ ما يقالُ ذلكَ في وُلاةِ الصَّدَقةِ(6)، والسَّعْيُ: المَشْيُ السَّريعُ، وهو دونَ العَدْوِ، ويُستعمَلُ للجِدِّ في الأمرِ، خيرًا كانَ أو شَرًّا، قالَ تعالى: ﴿وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَآۚ﴾ [البقرة: 114]،

(1) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 147، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4595.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ضلل).
(3) السمين، عمدة الحفاظ: (ضلل).
(4) الزبيدي، تاج العروس: (ضلل).
(5) الزمخشري، الكشاف: 2/ 749.
(6) الجوهري، الصحاح: (سعي).

وقالَ: ﴿إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ ۝٤﴾ [الليل: 4][1]، والمعنى المحوريُّ لهذه المادَّةِ تسيُّبُ جِرْمِ الشَّيءِ المُجتمِعِ وذهابُهُ شيئًا بعدَ شَيْءٍ، كما يَذوبُ الشَّمْعُ عندَ الاستصباحِ بهِ، وكمُرورِ ساعاتِ اللَّيلِ واحدةً بعدَ أخرى[2].

3) ﴿يُحۡسِنُونَ﴾: (حسن) ضدُّ القُبْحِ[3]، والحَسَنُ أيضًا: كلُّ مُبهِجٍ مرغوبٍ فيهِ، والحَسَنةُ يُعبَّرُ بها عن كلِّ ما يَسُرُّ مِنْ نعمةٍ تنالُ الإنسانَ في نفسِه وبدنِه وأحوالِه، والسَّيِّئةُ تُضادُّها، وأكثرُ ما جاءَ في القُرآنِ مِنَ الحُسْنِ فللمُستحسَنِ مِنْ جهةِ البصيرةِ، كقولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓ﴾ [الزمر: 18]، أي: الأبعدَ عنِ الشُّبْهةِ[4].

4) ﴿صُنۡعًا﴾: (صنع) أصلٌ واحدٌ، وهو عملُ الشَّيءِ صُنْعًا[5]، وذلكَ بجمعٍ أو تحصيلٍ في هيأةٍ جديدةٍ بتدبيرٍ واحتيالٍ أو إحكامٍ، فالمَصانِعُ: أحباسٌ تُتَّخذُ للماءِ[6]، والصَّنيعةُ: ما اصطنعتَهُ مِنْ خيرٍ، وفرسٌ صَنيعٌ: أُحسِنَ القيامُ عليهِ، وعُبِّرَ عنِ الأمكنةِ الشَّريفةِ بالمصانعِ، قالَ تعالى: ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ﴾ [الشعراء: 129] والصُّنْعُ: إجادةُ الفعلِ، قالَ تعالى: ﴿صُنۡعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتۡقَنَ كُلَّ شَيۡءٍۚ﴾ [النمل: 88]، وقالَ: ﴿وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا﴾[7].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

يُخبِرُ اللهُ ﷻ عن صفةِ الأخسرينَ أعمالًا، ويكشفُ عن حقيقتِهم، فيقولُ: هم الَّذينَ لم يكنْ عملُهم الَّذي عَمِلوهُ في حياتِهم الدُّنيا على هُدىً واستقامةٍ، بل كانَ على جَوْرٍ وضلالةٍ، وذلكَ أنَّهم

مـا بُـنـيَ على بُـطـلانٍ وبـوار فنهايتُهُ ضلال وخسار

(1) الراغب، المفردات: (سعي).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي: (سعي).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حسن).
(4) الراغب، المفردات: (حسن).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صنع).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقي: (صنع).
(7) الراغب، المفردات: (صنع).

عَمِلوا بغيرِ ما أمرَهم اللّهُ بهِ، بل على كفرٍ منهُم بهِ، وهم يظنّونَ أنَّهم بفعلِهم ذلكَ مُطيعونَ للّهِ، وأنَّ عملَهم على غايةٍ مِنَ الصَّوابِ والسَّدادِ، وأنَّهُ سينفعُهم ويكونُ لهُم ذُخْرًا يومَ القيامةِ، والواقعُ أنَّ سَعْيَهم كُلَّهُ ضلالٌ، وأنَّ ما عَمِلوا مِنْ عملٍ سيكونُ يومَ الحسابِ هباءً منثورًا[1].

وترشدُ الآية الكريمة إلى أنَّ من الناس من يعملُ العمل، ويظنُّ أنه محسنٌ، وقد حبط سعيُه، والذي يوجب إحباطَ السعي: إمّا فسادُ الاعتقاد، وإمّا المراءاةُ[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

تنوُّعُ إعرابِ الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ وثراء المعنى:

جوِّزَ في ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في قولِه ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، الجرُّ نعتًا أو بدلًا أو بيانًا، والنَّصبُ على الذَّمِّ بتقديرِ: أذمُّ، أو أعني[3]، وعلى هذه الوجوه يكونُ جوابُ ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا﴾ ما سيأتي مِنْ قولِه تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾، وجوِّزَ الرَّفعُ على أنَّهُ خبرُ مبتدأٍ مُقدَّرٍ جوابًا لسؤالٍ، كأنَّهُ لمّا قيلَ: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا﴾ قيلَ: مَنْ هم؟ فقيلَ: هم الَّذينَ ضلَّ سَعْيُهم في الحياةِ الدُّنيا[4]، وعلى هذا الوجه يكونُ فصلُ الآيةِ عمّا قبلَها؛ لما بينَهما مِنْ شِبْه كمالِ الاتِّصالِ، وهذا الوجهُ هو الرّاجحُ[5].

خبرُ المبتدأِ المحذوفِ على الرّاجحِ، يبين عن المعنى في الجملة

الغرض من التَّعبيرِ بالاسمِ الموصولِ:

لمّا كانَ المقامُ مقامَ تعريفٍ بالأخسرينَ أعمالًا عُبِّرَ بالاسمِ

استحضارُ الأخسرينَ بالوصفِ الَّذي هو علّةُ خُسرانِهم

(1) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 128.
(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 13/ 393.
(3) الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 6/ 138.
(4) الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 6/ 138، والشوكاني، فتح القدير: 3/ 372.
(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 249، والشوكاني، فتح القدير: 3/ 372.

الموصولِ في قولِه جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾؛ لاستحضارِ هؤلاءِ الأخسرينَ بالوصفِ الَّذي هو علَّةُ خُسْرانِهم.

بلاغةُ الإطنابِ في الآيةِ الكريمة:

بيان زيادة التَّشويقِ إلى معرفةِ الأخسرينَ

قولُهُ ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ إنْ كانَ بدلًا مِنْ قولِه: ﴿بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا﴾ يكونُ في الكلامِ إطنابٌ؛ لأنَّ البدلَ فيه إطنابٌ مبنيٌّ على الإجمالِ والتَّفصيلِ، وفي هذا الإطنابِ زيادةُ تشويقٍ إلى معرفةِ هؤلاءِ الأخسرينَ، حيثُ أُجريَ عليهم مِنَ الأوصافِ ما يزيدُ السّامعَ حرصًا على معرفةِ الموصوفينَ بتلكَ الأوصافِ والأحوالِ[1].

دلالة التَّعبيرِ بصيغةِ الماضي في ﴿ضَلَّ﴾:

ضلالُ الكافرينَ ضاربٌ بأطنابِه في الزَّمنِ السَّحيق

لمّا كانَ كفرُ هؤلاءِ الكافرينَ الأخسرينَ أعمالًا أمرًا راسخًا فيهم، وثابتًا لهُم منذُ زمنٍ أُسنِدَ الضَّلالُ إلى سَعْيِهم بصيغةِ الماضي في قولِ اللهِ جلَّ شأنُهُ: ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ تنبيهًا على ذلكَ، وفيه مزيدُ تخسيرٍ وتحسيرٍ لهُم ببيانِ أنَّ هذا الضَّلالَ ضاربٌ بأطنابِه في الزَّمنِ البعيدِ، وأنَّهم استمرّوا عليه، ولم يُقْلِعوا عنهُ، فترى ماضيَ سَعْيِهم قد اصطبغَ بصِبْغةِ الخُسْرانِ عياذًا باللهِ تعالى.

بلاغةُ المجازِ في لفظِ ﴿سَعۡيُهُمۡ﴾:

السَّعْيُ مجازٌ في العملِ الصّالحِ يعرف به بين النّاس

حقيقةُ السَّعْيِ المَشْيُ دونَ العَدْوِ، وهو في قولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ مجازٌ في العملِ الصّالحِ، فالعاملُ للصّالحاتِ كأنَّهُ يسيرُ سيرًا سريعًا إلى الآخرةِ ليصلَ إلى مرغوبِه منها، أي: عَمِلوا أعمالًا تقرَّبوا بها لمَنْ عبَدوهم مِنْ دونِ اللهِ تعالى، يَحْسَبونَها مُبلِّغةً إيّاهم أغراضًا، وقد أخطؤوها وهم يحسبونَ أنَّهم يفعلونَ خيرًا[2].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 46.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 15/ 60، 16/ 46.

سرُّ إيثارِ لفظِ السَّعْيِ على لفظِ العملِ:

الإشارةُ إلى أنَّ كلَّ جهودِ أهلِ الكفرِ في ضلالٍ وخيبة

اختيرَ لفظُ السَّعْيِ في قولِ الله جلَّتْ قُدرتُهُ: ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾، ولم يُقَلْ: (الَّذينَ ضلَّ عملُهم)؛ لأنَّ لفظَ السَّعْيِ بحسَبِ أصلِ معناهُ يُشيرُ إلى مَشْيٍ سريعٍ دونَ العَدْوِ، ويوحي بتحرُّكٍ دَؤوبٍ مِنَ السّاعي، ففي التَّعبيرِ به إشارةٌ إلى أنَّ كلَّ جُهْدٍ يبذلُهُ الأخسرونَ أعمالًا يكونُ جُهْدًا في ضلالٍ، فلا يكونُ فيه خيرٌ أبدًا[1]، وفي هذا مبالغةٌ في بيانِ سوءِ عاقبةِ أمرِهم؛ حيثُ ضاعَ كلُّ ما عَمِلوهُ مِنْ عملٍ، وجُعِلَ هباءً منثورًا، ولم يكنْ لهُم منهُ إلّا التَّعَبُ والنَّصَبُ.

دلالةُ التَّعبيرِ بالمصدرِ ﴿سَعۡيُهُمۡ﴾:

المبالغةُ في ضلالِ سَعْيِهم، من بليغِ البيانِ عن حالِهم

عُبِّرَ بصيغةِ المصدرِ في قولِه ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾، ولم تأتِ بصيغةِ المصدرِ الميمي، مثلًا: (الَّذينَ ضَلَّ مَسعاهم)؛ لما تُفيدُهُ نسبةُ الضَّلالِ إلى سَعْيِهم مِنْ شُمولِ الضَّلالِ، لكلِّ مَسْعىً لهُم، ولكلِّ فعلٍ فعَلوهُ، وكأنَّ الضَّلالَ رفيقُهم في كلِّ دربٍ سَلَكوهُ، ولو قيلَ: (الَّذينَ ضَلَّ مَسعاهم)، لربَّما ظُنَّ التَّجوُّزُ في العبارةِ، وأنَّ الضَّلالَ كانَ لبعضِ مَساعيهِم دونَ بعضٍ.

سرُّ الإضافةِ في ﴿سَعۡيُهُمۡ﴾:

تأكيدُ نسبةِ الضَّلالِ للسَّعْيِ الصّادرِ منهُم

تدلُّ إضافةُ السَّعْيِ إلى الضَّميرِ الرّاجعِ إلى الأخسرينَ أعمالًا في قولِه ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ على تأكيدِ أنَّ السَّعْيَ الضّالَّ هو السَّعْيُ الصّادرُ منهُم المنسوبُ إليهِم، بسببِ كفرِهم، وفي ذلكَ إيقادٌ لنارِ الحَسْرةِ في قلوبِهم حينَ يرونَ أنَّ سَعْيَهم هم كانَتْ عاقبتُهُ الخُسْرانَ والضَّلالَ، وأمّا سَعْيُ غيرِهم مِنَ المؤمنينَ فقد أفلحَ وأنجحَ، ونالوا به الزُّلْفَى والكرامةَ عندَ الله جلَّ وتباركَ.

بلاغةُ المجازِ في إسنادِ الضَّلالِ إلى السَّعْيِ:

إسنادُ الضَّلالِ إلى السَّعْيِ في قولِه عزَّ مِنْ قائلٍ: ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4595.

سَعْيُهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ مجازٌ عقليٌّ، والمعنى: الَّذينَ ضَلّوا في سَعْيِهم[1]؛ لأنَّ الضّالَّ حقيقةً هو صاحبُ السَّعْيِ لا السَّعْيُ نفسُهُ، وفي ذلكَ مبالغةٌ في الضَّلالِ، كأنَّهُ بضلالِ النَّفْسِ انتقلَ الضَّلالُ إلى السَّعْيِ والعملِ؛ للإشارةِ إلى أنَّ العملَ يكونُ ضلالًا بضلالِ النَّفْسِ وفسادِ القصدِ[2].

إسنادُ الضَّلالِ إلى السَّعْيِ من البيانِ البليغِ في هذا السّياقِ الأنيقِ

سرُّ التقييد بالجارّ والمجرور ﴿فِي ٱلْحَيَوٰةِ﴾:

الجارُّ والمجرورُ في قولِه تباركَ شأنُهُ: ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ مُتعلِّقانِ بالسَّعْيِ، ولا يصحُّ تعلُّقُهما بالضَّلالِ؛ لأنَّ بطلانَ سَعْيِهم غيرُ مختصٍّ بالدُّنيا[3]، بل ظُهورُ بطلانِ سَعْيِهم إنَّما يكونُ في الآخرةِ؛ لأنَّهم في الدُّنيا يحسبونَ أنَّهم يُحسِنونَ صُنْعًا، ويرجونَ نفعَ أعمالِهم، ولا يظهرُ لهُم أنَّها هباءٌ منثورٌ إلا يومَ الحسابِ والجزاءِ.

تعلّقُ الظّرفِ بالسَّعْيِ المنوطِ بالحياةِ الدّنيا وغرورِها

معنى حرفِ الجرِّ في قولِهِ: ﴿فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾:

يدلُّ حرفُ الجرِّ ﴿فِي﴾ في قولِه تباركَ شأنُهُ: ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ على الظَّرفيَّةِ، ويفيدُ أنَّ مكانَ سَعْيِ الكافرينَ الضّالِّ هو الحياةُ الدُّنيا؛ لأنَّها هي دارُ السَّعْيِ والعملِ، وأمّا الآخرةُ فهي دارُ الحسابِ والجزاءِ.

مكانُ سَعْيِهم الضّالِّ هو الحياةُ الدُّنيا

نكتةُ تقييد الحياة بوصف ﴿ٱلدُّنْيَا﴾:

يَرِدُ وصف الحياة بـ ﴿ٱلدُّنْيَا﴾ في القرآنِ الكريمِ عندما يُرادُ تصويرُ استغراقِ الإنسانِ في هذه الحياةِ، وعدمِ عنايتِه بما بعدَها، واغترارِه بأهوائِها وشَهَواتِها، وكأنَّها هي الحياةُ الأَبَديَّةُ[4]، واستعمالُهُ

سَعْيُهم الضّالُّ لم يَنْقُلْهُم مِنْ حَضيضِ الحياةِ الدُّنيا

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 47.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4595.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 249.
(4) عودة خليل، التطور الدلالي بين لغة الشعر الجاهلي ولغة القرآن، ص: 349 - 350.

في قولِه جلَّ شأنُهُ في بيانِ الأخسرينَ أعمالًا: ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ فيه إشارةٌ إلى أنَّ سَعْيَهم لم يَنْقُلْهم مِنْ حَضيضِ الحياةِ الدُّنيا إلى درجاتِ الآخرةِ العُليا، وأنَّ هذه الحياةَ الدُّنيا على طولِها لم تكنْ إلا ظَرْفًا ومَحَلًّا لضلالِ سَعْيِهم وبطلانِ أعمالِهم، فلم يُحْسِنوا زَرْعَهم فيها، فلا يَجْنونَ في الآخرةِ إلّا العذابَ والنَّكالَ، والحَسْرةَ وخَيْبةَ الرَّجاءِ.

سرُّ التعبير بالجملة الحاليةِ في قوله: ﴿وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ﴾:

جملةُ ﴿وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا﴾ حالٌ مِنْ فاعلِ ﴿ضَلَّ﴾، أي: ضلّ سَعْيُهم المذكورُ والحالُ أنَّهم يَحْسَبونَ أنَّهم يُحسِنونَ في ذلكَ وينتفعونَ بآثارِهِ[1] أو حالٌ مِنَ المضافِ إليه (هم) في ﴿سَعۡيُهُمۡ﴾؛ على نظيرِ قولِه تعالى: ﴿إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعًاۖ﴾ [يونس: 4]، فيتوجّه الحال في الأولى إلى توصيف حدث الضلال، وفي الثانية إلى توصيف الساعين، والفرقُ بينَهما: أنَّ المقارنَ لحالِ حُسْبانِهم المذكورِ في الأوَّلِ ضلالُ سَعْيِهم، وفي الثّاني نفسُ سَعْيِهم[2].

لا أسوأ ممّن ضلّ سعيه، وهو يحسب خلافه

الغرض من تقديمِ ﴿وَهُمۡ﴾ على ﴿يَحۡسَبُونَ﴾:

تقديمُ المسندِ إليه ﴿وَهُمۡ﴾ على الخبرِ الفعليِّ ﴿يَحۡسَبُونَ﴾، في قولِه جلَّتْ قُدرتُهُ: ﴿وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا﴾ لتقويةِ الحكمِ، لا للحصرِ؛ لأنَّهُ غيرُ مناسبٍ هنا[3]؛ لأنَّهُ ليسَ المرادُ أنَّهم هم يَحْسَبونَ دونَ غيرِهم، بل المرادُ تقويةُ صُدورِ الحُسْبانِ منهُم، ووجهُ التَّقوّي: أنَّ الحُسْبانَ الدّالَّ عليه ﴿يَحۡسَبُونَ﴾ قد أُسنِدَ إلى ﴿وَهُمۡ﴾، وفي ﴿يَحۡسَبُونَ﴾ ضميرٌ راجعٌ إلى ﴿وَهُمۡ﴾ وهو مسندٌ إليه أيضًا، فيكونُ الحُسْبانُ قد أُسنِدَ إليهم مرَّتينِ، كأنَّهُ قيلَ: هم يَحْسَبونَ، هم يَحْسَبونَ.

التَّقديمُ مفيدٌ تقويةَ الحكمِ في السّياق الحكيم

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 249، والشّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 372.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 249.
(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 176.

دلالةُ التعبير بالمضارعِ في فعلَي ﴿يَحْسَبُونَ﴾ و﴿يُحْسِنُونَ﴾:

استمرارُ حُسبانِهم أنَّ أعمالَهم حسنةٌ وهم في ذلك واهمون

عُبِّرَ بصيغةِ المضارعِ في قولِ اللّه جلَّ وتباركَ: ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾؛ للدَّلالةِ على تجدُّدِ الحُسْبانِ منهُم، وأنَّهم كانوا على الدَّوامِ يَحْسَبونَ أنَّ أعمالَهم حسنةٌ، وكلَّما سَعَوْا سَعْيًا، وعَمِلوا عَمَلًا نَظَموهُ في سِلْكِ استحسانِهم، ورَجَوْا نَفْعَهُ وبِرَّهُ معَ أنَّهُ ضالٌّ ضائعٌ، لا وزْنَ لهُ في موازينِ الآخرةِ، وفي ذلكَ تجهيلٌ لهُم، وتقبيحٌ لسوءِ صنيعِهم، فهم بمنزلةِ قابضٍ على الماءِ خانَتْهُ فُروجُ الأصابعِ.

نكتةُ التَّعبيرِ بالإحسانِ في ثنايا السّياق:

الإشارةُ إلى إعجابِهم بأعمالِهم الّتي توهّموا حسنهم في مزاولتها

في قولِه ﷻ: ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ مَلْمَحٌ لطيفٌ؛ لأنَّ الإحسانَ هو الإتيانُ بالأعمالِ على الوجه اللّائقِ، وهو حُسْنُها الوصفيُّ المُستلزِمُ لحُسْنِها الذّاتيِّ، فيكونُ في الآيةِ تنبيهٌ على شدَّةِ إعجابِهم بأعمالِهم، والمعنى: وهم يَحْسَبونَ أنَّهم يعملونَ أعمالَهم على الوجه اللّائقِ، وذلكَ لإعجابِهم بأعمالِهم الَّتي سَعَوْا في إقامتِها، وكابَدوا في تحصيلِها[1].

بلاغةُ التعبير بالجناس في: ﴿يَحْسَبُونَ﴾ و﴿يُحْسِنُونَ﴾:

جناسُ التَّصحيفِ من بيانِ السّياقِ المنيف

بينَ ﴿يَحْسَبُونَ﴾ و﴿يُحْسِنُونَ﴾ في قولِه ﷻ: ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ لونٌ مِنْ ألوانِ البديعِ، وهو تجنيسُ التَّصحيفِ؛ وهو أنْ يكونَ النُّقْطُ فرْقًا بينَ الكلمتينِ[2]، ويُسمَّى هذا النَّوعُ مِنَ التَّجنيسِ تجنيسَ الخَطِّ أيضًا[3]، وفيه لفت للعقل بإيهام التكرار، وليس بتكرار، وهو مما ينشط الذهن ويلفت الانتباه، ويكون في المعاني المُهمة.

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 249.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 7/ 230، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 47.
(3) السمين، الدر المصون: 7/ 553.

علَّةُ إيثارِ الصُّنْعِ على الفعلِ في السّياق:

الصُّنْعُ أنسبُ بمقامِ تجهيلِ المشركينَ المغرورين

لمّا كانَ المقامُ لتجهيلِ الأخسرينَ أعمالًا في حُسْبانِهم أنَّ أعمالَهم حسنةٌ، معَ كونِها في الواقعِ قبيحةً ضالَّةً؛ أوثرَ في قولِه جلَّ شأنُهُ: ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ لفظُ الصُّنْعِ على لفظِ الفعلِ، فلم يُقَلْ: (وهم يَحْسَبونَ أنَّهم يُحْسِنونَ فعلًا)؛ لأنَّ الصُّنْعَ أخصُّ مِنَ الفعلِ؛ فالصُّنْعُ في الأصلِ: إجادةُ الفعلِ، فكلُّ صُنْعٍ فعلٌ، وليسَ كلُّ فعلٍ صُنْعًا، وللإجادةِ يقالُ للحاذقِ المُجيدِ: صَنَعٌ[1]، فكانَ لفظُ الصُّنْعِ أنسبَ بالمقامِ، والمعنى: وهم يَحْسَبونَ لضَعْفِ عُقولِهم أنَّهم يُحسِنونَ فعلاً هو في غايةِ الإحكامِ، وهم في غايةِ الدُّرْبةِ بهِ[2].

الغرضُ من تنكيرِ ﴿صُنْعًا﴾:

تفخيمُ أمرِ الصُّنْعِ وتهويلُهُ مقصدٌ مهمٌّ في السّياق

جيءَ بلفظِ الصُّنْعِ مُنكَّرًا في قولِه ﷻ: ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾؛ لتفخيمِ شأنِ صُنْعِ الأخسرينَ أعمالًا وتهويلِهِ؛ لأنَّهم قد تملَّكَ نُفوسَهم إعجابُهم الشَّديدُ بعملِهم الَّذي يظنّونَ أنَّهُ على غايةٍ مِنَ السَّدادِ والصَّوابِ، وأنَّهُ نافعُهم يومَ القيامةِ.

سرُّ إسنادِ الضَّلالِ وإيقاعِ الإحسانِ على الصُّنْعِ:

نفيُ الأعمِّ يستلزمُ نفيَ الأخصِّ

أُسنِدَ الضَّلالُ للسَّعْيِ في قولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، وأوقِعَ الإحسانُ على الصُّنْعِ في قولِه: ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾؛ لأنَّ السَّعْيَ أعمُّ مِنَ الصُّنْعِ، فناسبَ إسنادَ الضَّلالِ إليهِ؛ لأنَّ نفيَ الأعمِّ يستلزمُ نفيَ الأخصِّ، والضَّلالُ نفيٌ، والإحسانُ إثباتٌ، فصارَ كقولِه تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ [البقرة: 17][3].

(1) الراغب، المفردات: (صنع).
(2) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 147.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 105.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثلاثون،
سورة الكهف من الآية 37 إلى سورة مريمَ الآية 12
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثلاثون، سورة الكهف من الآية 37 إلى سورة مريمَ الآية 12
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 30 ، 804 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-27-2
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 30 : المجلد الثلاثون، سورة الكهف من الآية 37 إلى سورة مريمَ الآية 12.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-27-2
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9725630 بتاريخ 2024/11/04م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»